د. خيرالدين دعيش

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي
جامعة سطيف 2

مقياس نظرية الأدب للسنة الثانية ليسانس

مدخل إلى نظرية الأدب 1

عناصر الموضوع :

1 – الأدب والدراسة الأدبية

2 – نظرية الأدب (المفهوم)

3 – نظرية الأدب وعلاقتها بالنقد وتاريخ الأدب

---

1 – الأدب والدراسة الأدبية :

ما الذي يميّز الأدب عن غيره من النصوص ؟ ثمّ ما الذي يجعل من العمل الأدبي عملا أدبيا ؟ هل الذي يميّز الأدب اللفظ أم المعنى ؟ الصورة أم الإطار الجمالي ؟ الفكرة أم أسلوب العرض ؟ أم إنّ العمل الأدبي محاكاة لفظية فنّية ؟ وإذا كان ذلك فما مفهوم المحاكاة وما موضوعها ؟ هل هي محاكاة للمظاهر الحسّية أم للانطباعات الذهنية أم لكليهما ؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ الأدب حاجة إنسانية ، جمالية ، اجتماعية وثقافية ، وظلّ مرتبطا بالإنسان منذ غابر الزمان ، ليعبّر به عن طموحاته وخيالاته وأساليب حياته بطريقة عفوية . ولم يكن ثمّة مفكّرون أو نقاد أو دارسون يؤكّدون على مجتمعاتهم الأخذ بفنّ الشّعر والأدب ، وإنّما وُجد الإنسان بطبعه ميّلا إلى الأدب ، وهو في هذه الحالة شبيه بالإنسان الذي يسعى إلى تزيين بيته أو محيطه بالصور الجميلة أو إلى الزخرفة المعمارية التي تشدّ الناظرَ إليها أو الحدائق التي تحسّن مشهد المدينة .

ولعلّ ما يلفت النظر في هذه المقدّمة هو أنّ الأدب قديما – لا سيما عند اليونانيين – كان يراد به الشعر والمسرح والقصّة والملحمة في الوقت نفسه ، أي لم يكن ثمّة تمييز بين هذه الأجناس الأدبية التي نعرفها في الوقت الحاضر ، على أنّها أجناس أدبية متمايزة ، كالشعر

مثلا باعتباره فنّا قائما ومستقلا عن الرواية والمسرحية ، وما ملحمة " هوميروس " إلاّ لتؤكّد هذه الفكرة في وجودها ، إذ الملحمة عيارة عن رواية شعرية مطوّلة تصل إلى عدّة آلاف من الأبيات ، وتهدف إلى تمجيد بطولات الأثينيين (أثينا) في معاركهم ضدّ الطرواديين (طروادة) التي دامت عشرة سنوات . ثمّ هناك المأساة أيضا التي تمّ المزج فيها بين المسرح والشعر ، وهي قصيدة مسرحية وضع قواعدها " أرسطو " في كتابه " فنّ الشعر " ، ويراد بها تلك القصيدة المسرحية التي تتطوّر في أحداث جدّية وكاملة مستمدة من التاريخ أو من الأساطير ، على أن تكون شخصياتها من الطبقة السامية ، ويكون الغرض منها إثارة عاطفتي الشفقة والخوف في نفوس المشاهدين .

أمّا الأدب عند العرب قديما – لا سيما عند الجاهليين – فكان يساوي القصيدة الشعرية ، وهي عبارة عن مجموعة من الأبيات الشعرية المطوّلة تتّحد في القافية والوزن والروي ، وقد كان من عادة الشعراء الجاهليين أن يبدأوا مطوّلاتهم بالوقوف على الأطلال أو ذكر ديار الأحبّة ، أي إنّ جنس الرواية أو المسرحية لم يكن جنسا أدبيا سائدا في حياة العرب الفنّية ، عدا بعض النماذج الأدبية مثل (رواية ألف ليلة وليلة) وهي رواية من أصل فارسي ، مزجَت بين الفنّ الروائي والفنّ الشعري ، ولكنّها لم تُكتَب شعرا كما هو الحال مع الملحمة ، وإنّما هي رواية تضمّنت قصائد شعرية هائلة ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الرواية المطوّلة " سيرة بني هلال " المجهولة المؤلّف .

وقد كان يقصَد بالأدب اصطلاحا التعليم والتهذيب ، مثال ذلك (الأدب الكبير والأدب الصغير) لابن المقفّع . أمّا مصطلح الآداب في اللغة الإنجليزية فيعبّر عنه بـ : Polite Littérature ، ويقصد به الآداب الرفيعة في أواخر القرن السابع عشر ، ثمّ استخدم الفرنسيون بعد ذلك مصطلح الآداب الجميلة Les belles – lettres .

وبالرغم من هذه المفاهيم النظرية والنقدية لمصطلح الأدب قديما ، فإنّ الأدب يظلّ يتغيّر بتغير معطيات الزمان والمكان وكذا المعطيات الحضارية والاجتماعية ، فإذا عدنا إلى الزمن القديم وجدنا أنّ الأدب كان يعتمد على أساس من العرض والمشافهة ، فقد كان الشاعر الجاهلي يقرأ القصيدة على الملأ من الناس ، ويستمتع بها الجمهور سماعا في الأسواق الأدبية ، وكانت أشعار إلياذة هوميروس وأناشيده تُنشد وتُعرض شعرا بين الناس ، وكان الشعر الحماسي والغنائي مصحوبا بالناي ، أمّا اليوم فقد غدا المرء يقرأ الروايات والقصائدَ بعينه ولنفسه في معظم الأحيان .

هناك قضية يجب أن ننوّه إليها وهو أنّ جنسَيْ الرواية والشعر يلتقيان في كثير الأحيان ، لا سيما في الرواية المعاصرة التي أصبحت تستخدم اللغة الشعرية أو الأساليب الشعرية أثناء السرد الروائي ، خاصة وأن الشعر المعاصرَ (الشعر الحرّ) أصبح سهل الاستخدام مقارنة بكتابة القصّة والرواية ، لأنّه لا ضرورة لا لوزن ولا لقافية .

وإذ نتحدث عن اللغة ، فإنّ الأدب كظاهرة فنّية ونشاط إنساني واجتماعي ، تظلّ اللغة أداة ضرورية بالنسبة إليه ، إذ إنّ الأدب يتجلّى جماليا وفنّيا عبر اللّغة ، وهذا ما يميّزه عن باقي الإبداعات الفنية الأخرى ، ففي اللوحات الفنية يمكننا مشاهدتها عيانا ، وكذا صورة التمثال التي تجسّد شخصا طبيعيا ، إلا أنّ ذلك يتمّ تصويره من جانب واحد فقط ، لأنّ صورة التمثال تفتقد الصوتَ والحركةَ ، في حين أنّ الموسيقى تمتلك الصوت ولا تمتلك الصورة .

ولقد ظلّ الأدب عبر مراحله التاريخية يمتلك أشكالا ومضامينَ مختلفة ومتنوّعة ، ذلك أنّ الفنّ الملحمي الذي كان سائدا لم يدم عبر الزمن ، وإنّما حلّت محله الرواية ، وأنّ القصيدة العمودية حلّت محلها القصيدة الحرّة ، فظهر ما يسمى بالأدب الخيالي (الرواية الخيالية ... الرواية البوليسية ... الرواية السياسية .... الاجتماعية والتاريخية ، المسرح الأيديولوجي ، المسرح الكوميدي ... المسرح الفكري ...) .